



هجرة الكلدان الاشوريين الاسباب والدوافع.. *

حنا شمعون

من اجل ضمان مصالحها في تعاملها من الحكام الجدد في الدولة الحديثة النشوء، فجاءت مذبحة سميل 1933 لتشكل ضربة قاصمة للقضية القومية وللمجتمع الاشوري كان نتيجتها الاف من الضحايا والالاف من المهاجرين الجدد، والدفع للمزيد من التشرذم والتخلي عن الالتزامات الوطنية والقومية.



مجموعة من اللاجئين الكلدان من غرفة فندق في تيخوانا - المكسيك في ايلول 2001

تواصلت اسباب الهجرة الداخلية او الخارجية لهذا الشعب ، فمع بداية ثورة ايلول 1961 اضطر الالاف مرة اخرى لتترك قراهم وبعض مواطنيهم سكانهم التاريخية والنزوح الى المدن الكبيرة، ومع استمرار السياسات العنصرية جرى تدمير وحرق المئات من القرى الكلدو اشورية ايان السبعينات والثمانينات وتهجير سكانها وتجميعهم في مجامع لا تصلح للعيش، استمر نزيف الهجرة من الوطن ازاء هذا الواقع وعدم الاستقرار، ومع استمرار الموقف السلبي لانظمة الحكم من الحقوق الوطنية والقومية لهذا الشعب ، وخصوصاً في عهد الرئيس العراقي الحالي صدام حسين الذي يمثل نموذج لانظمة الاستبدادية والقمعية والعنصرية، حيث استحدثت فنون جديدة لصهر وتعريب قوميات العراق ولتحرير التاريخ وتزويره اضافة الى ملاحقة الداعين للحرية والديمقراطية والناشطين من اجل الحقوق القومية والوطنية وزجهم في السجون واعداد كثيرين منهم. استمرت وتيرة الهجرة الى الخارج في تصاعد ومع مصادر الحريات وتشديد الخناق على ابناء الشعب العراقي عموماً ومن ثم تفاقم العواقب الكارثية والاقتصادية التي لحقت بالبلد جراء الحروب الداخلية والخارجية المتواصلة، وهي الاسباب التي دفعت باربعة ملايين عراقي ليهجروا بلاد الخيرات ويتشتتوا في مختلف اصقاع المعمورة بحثاً عن لقمة العيش والامان. ما جرى عرضه يشكل الاسباب الرئيسية لهجرة الكلدو اشوريين بهذا الشكل الجماعي، ويكن هناك وخصوصاً عند الافراد دوافع اضافة كالبحت عن الرفاهية والتحرر في مجتمعات الغرب. رغم هجرة الكثير من ابناء هذا الشعب الا ان العديد منهم لا زال يحترق شوقاً الى الوطن وينتطلع للعودة اليه والعيش تحت خيمته ثانية، الى جانب الغالبية من ابناء جلدته التي لا زالت صامدة رغم المحن والصعاب مع بقية ابناء العراق، وهؤلاء يرون الى يوم الخلاص من هذا الكابوس لينبعث العراق مجدداً على أسس صحية تواكب مفاهيم العصر، فسياسة الاحتكار والانفراد والغاء الاخر فكراً او قومياً أو دينياً، لم تجلب لبلادنا سوى الخراب والدمار، وما نحتاجه اليوم هو عقلية متفتحة ونظام ديمقراطي تعددي يضمن حقوق جميع ابناء العراق بمختلف تلوينهم لقد خدم الكلدان الاشوريين ووطنهم بكل تقان واخلاص رغم الاضطهاد والانتقاص من وطنيتهم وانسانيتهم ، فما بالنا لو حصل العكس، وتأكدوا من ضمان حقوقهم ومن مواطنيتهم، فعندها سيتصاعد حتماً عطائهم وادعائهم وهو ما سيصب في مصلحة البلاد وتطورها.

* نشر في جريدة الاهالي الصادرة في اربيل العدد (1) السنة الاولى - السبت 1 حزيران 2002

من امثالنا الكلدانية الشعبية

" ليث تانا د لا نورا " : ويعني لا دخان بلا نار، ويقال هذا المثل عند توجيه اتهام ضد شخص او عائلة وتكون محاولة تكذيبه وتفنيد صعبه للغاية، ويصعب على الناس تقبلها خاصة ان الخبر السيئ ينتشر بسرعة وتصدق الخبر السيء اسهل من تكذيبه.

" ميرى تا تيلا منيلي سهاذوخ، ميرة سهاذي دنوي (دنبوسي) " : ويعني سئل الثعلب من هو شاهدك، فرد: شاهدي هو ذيلي. ويقال هذا المثل للشخص الذي يقدم شهود من اتباعه وحاشيته ليدلوا بشهادة لصالحه، وعادة ما تكون شهادتهم ملفقة وبالتالي مشكوك فيها.

" ميرى تا تيلاونها تمها كشيشت كاتوخ، ميرة كئيا مني " : ويعني قيل للثعلب (مصغر ثعلب) لماذا تهز بجسمك وتتمخض، فرد قائلاً: ولما لا.. طالما بامكاني ان افعل ذلك، ويقال هذا المثل للاستهزاء من الشخص الضحل الذي بمجرد ان يحصل على ثروة او منصب ينفش ريشه ويتكبر على اصدقائه ومعرفه.

ظاهرة الهجرة من الظواهر المعروفة التي رافقت حياة الانسان على هذا الكون وهي لا تخضع لزمان ومكان وقد تعود لاسباب قسرية او طوعية، وهناك هجرة داخلية واخرى خارجية ولقد اتفق علماء الاجتماع على ان الاوضاع الأمنية والاقتصادية هي الدافع الرئيسي للهجرة. دراسة ظاهرة الهجرة أو أسبابها لدى الاشوريين والكلدان تستوجب التوقف على البنية الاجتماعية والأسس المادية والمعنوية المتأسسة عليها، والتي تدخل في صياغة التربة الفكرية والسلوكية ازاء الذات ومع الاخرين في خضم سيرورة الحياة وادائها المختلفة، وهذا الموضوع قائم بذاته ويحتاج للامام بكافة جوانبه دراسة أعمق وأشمل، لا وسع للخوض فيها ضمن سياق موضوعنا هذا، وسنكتفي للمرور سريعاً على بعض محطاته ونتوقف عند الوقائع السياسية التي جرت خلال القرن الماضي.

من المعلوم ان الكلدان الاشوريين يعدون من اوائل الشعوب التي اعتنقت الديانة المسيحية وكان ذلك تحولاً كبيراً في حياتهم وانقلاباً على الموروث الاجتماعي وعلى معظم المفاهيم والسلوكيات التي سادت مجتمعهم ابان حكمهم في بابل و آشور وفي الدويلات الصغيرة التي تلتها وبفعل المسيحية ومبادئها المعروفة والتفاعل الصميمي لهذا الشعب معها تحولت تدريجياً جل الاهتمامات الى الآخرة بدل الدنيا، فانسحبت نزعات الميل للقوة والسيطرة والتوسع أمام التسامح والتواضع والقبول بالامر الواقع أي كان حكماً دنوبياً والتفرغ للدين الجديد ومقتضيات التعمق فيه وترسيخه وحمل رسالته الى الاخرين، والعالم يشهد على الدور المتميز لهذا الشعب في هذا المجال، وما خلفه من تراث فكري وفلسفي وثقافي على مر السنين. وهذا التحول ومع مرور الزمن افضى الى غياب النظام الاجتماعي الشامل الذي يلم الوحدات الاجتماعية الثانوية (الطوائف الدينية، او العشائر او القرى، او المناطق) مما جعل مصير معظم ابناء هذا الشعب يخضع كلياً للحاكم وسلوكياته.

في مطلع القرن الماضي كان ما تبقى من الاشوريين والكلدان والسريان (هذه كلها تسميات لشعب واحد وتعتبر عن محتوى قومي واحد ولكنها ترسخت اكثر بعد ان لبست لبوساً طائفياً بعد الانشقاقات الكنيسة) كان هؤلاء يخضعون لحكم الدولة العثمانية، وكما هو معلوم بأن هذه كانت دولة اسلامية، وعلى العموم وكانت تعامل شعوبها على هذا الاساس - دون ان يعني هذا بالضرورة بأن ما جرى كان تطبيقاً للموقف الحقيقي للدين الاسلامي الحنيف من بقية اهل الكتاب بل انه خضع كثيراً لاجتهادات السلاطين والامراء والحكام المحليين - فكان المسلم أي كان قومه يشترك في حروب الدولة ويساهم في انتصاراتها ويطيع السلطان العثماني طاعة دينية وسياسية بصفته خليفة المسلمين، أما المسيحي فيعيش على هامش الدولة ويدفع الجزية ويخضع احياناً للسلوكيات المؤذية لبعض القادة او رؤساء العشائر أو الاقطاعيين الطامعين في ممتلكاتهم، وهو في الاصل لم تنقطع عن التوارث لديه الذكريات الاليمية لتبعات الصراع العثماني الفارسي الدامي الذي شهدته المنطقة لسنوات طويلة، مما ولد لديه احساساً بالغربة وخلق حواجز نفسية مهدت للنزوح للهجرة باعتبارها اسهل الحلول، فامام هذا الواقع والمعاناة الاقتصادية الكبيرة ابان الحرب العالمية الاولى وبالتطوير النسبي لوسائل النقل بدأت الهجرة الى الخارج بمفهومها المتداول اليوم، وكانت البداية من سهل نينوى.

اقتزن الجانب القومي او السياسي لهذا الشعب بالمجموعة التي سكنت حكاري وذلك لاسباب عديدة لا مجال لحصرها هنا غير ان نقول بان النظام الاجتماعي لهذه العشائرية كان اكثر وضوحاً بسبب البنية العشائرية والنظام الكنسي العشائري، وساعده الواقع الجغرافي الذي عزلها عن المؤثرات الخارجية فكانت تتمتع باستقلال نسبي.. الغالبية العظمى لهذه المجموعة كانت ممن اصطح عليهم (النساطرة) ولهذا جرى خطأ تحجيم واقع وتاريخ هذا الشعب بواقع هذه المجموعة وطرح بقية الطوائف خارج السياق التاريخي القومي للشعب الكلداني السرياني الاشوري، وذلك بسبب عجز هؤلاء عن فهم التطور التاريخي والخصومات المذهبية لهذا الشعب فالى جانب المقومات القومية الموضوعية الجامعة لهذا الشعب، هناك المقومات الفكرية والنضالية المشتركة، حيث ان معظم القادة والمفكرين القوميين لهذا الشعب لم يكونوا من النساطرة بل من السريان والكلدان على العموم لاسباب التي نوهنا عنها بخصوص حكم الدولة العثمانية ولتبلور الوعي القومي لمجموعة حكاري، اتخذ قادتتها في ربيع عام 1915 قرار المشاركة الى جانب الحلفاء ضد الدولة العثمانية ابان الحرب الكونية الاولى تأكيداً للايمان بالحق القومي والتحرر من الاستبداد السياسي والاقتصادي، ورغم البسالة والشجاعة التي ابداهما الكلدو اشوريين في هذه الحرب والتي كان لها الاثر الاكبر في تقرير مصير ولاية الموصل، ورغم التضحيات الجسيمة التي قدموها، خرجوا من هذه الحرب الخاسر الاكبر بسبب التنصل المخزي للحلفاء وفي مقدمتهم الانكليز عن الوعود التي قدموها لهم، فخصروا عشرات الالاف من نفوسهم واضاعوا اراضيهم وممتلكاتهم، فهجروا جماعياً من حكاري ومناطق شاسعة محيطية بها، ليواجهوا واقع اخر صور بشكل خاطيء ومشوش وترسب في البنية الفكرية العراقية وتسرب الى مفاهيم ومعتقدات الكثير من النخب السياسية والمفكرين والكتاب العاقبين، وتدخل ذلك بشكل مباشر في صياغة الموقف الشعبي والرسمي من المطالبة بالحقوق القومية لهذا الشعب.

وذلك بأن اعتبر هؤلاء الاشوريين او النساطرة غرباء دخلوا الى العراق بمعونة الانكليز ويسعون الى كيان مستقل فيه. وفي الحقيقة لاثبات عكس هذا التصور يطول الحديث، ولكننا نختصر ونقول ان الحدود التي رسمت للعراق عندما يتم الحديث عنها من منظور عروبي فهي بها اوصال الوطن وختزل من مساحته، وعندما يراد الحديث عن الحقوق القومية للاشوريين والسريان او للكلد، فهذه الخطوط مقدسة وهي وحدها التي تحدد الهوية الوطنية. ان هذه الخطوط رسمها الغرباء وقيل تأسيس الدولة العراقية الحديثة وقبول دخول هذه المجموعة اليه، ولم يفلح التفاوض بين الانكليز والترک لضم حكاري اليها ايضاً، ومن ثم المدرك لخصوصيات هذا الشعب، تراثاً وتقاليداً واخذ وعطاء، يسلم بأن هذه المجموعة هي امتداد طبيعي للكلدان الاشوريين من سهل نينوى الى جبال كوردستان، وكانوا ادارياً يتبعون ولاية الموصل، ومرجعية كنيسة حتى 1820 لاقوش لوجود مقر البطريرك هناك، اضافة الى النقل الدائم لاسباب اقتصادية او اجتماعية (بين حكاري وبرواري بلا وصنا وسهل نينوى).

لقد افضت الحرب الكونية الاولى الى انهيار النظام الاجتماعي لهذه المجموعة التي شكلت بؤرة النضال القومي كما اسلفنا ، ولقد خلق هذا الانهيار حالة من الفوضى والتشرذم لم تفلح ازاءه الامكانات الفكرية والمادية الشحيحة لهذا الشعب والظروف المأساوية الصعبة التي فرضت عليه من ترتيب البيت الداخلي ومجابهة الظروف الجديدة والمستجدات السياسية والفكرية التي برزت بعد الحرب، ولم يفلح الرواد والمفكرين الذين برزوا خلال هذه المرحلة من حسم الصراع مع الزعامات التقليدية، ومواجهة عنصرية الحكام الجدد ومعاداتهم لكل ما هو غير عربي من جهة، ومن جهة اخرى السياسات الاستعمارية البريطانية التي نكثت بوعودها